

بالشرق عن العودة الأبدية للظواهر، فإنه لا ينتقل إلا ظاهرياً فكر مفكر شرقي مثل فكر / لاو - تسو/ الذي ينظر إلى الدورة المتواصلة للظواهر على أنها تنبثق من الأبدية وتعود إليه. ولكن هذه الدورة يمكن أن تنتهي وهذا ينطوي على أنها ليست أبدية. ومذهب بوذا يركز على هذا المبدأ. والخلاص، «السعادة الأبدية»، هو الإفلات من سلسلة التقمصات.

هل ينبغي القول أن جميع الشرقيين ليسوا بالضرورة من أنصار هذا المبدأ؟ وكذلك الحال، في الغرب، لا يستلهم الجميع من الفكر التاريخي. ويرى كبار المفكرين الشرقيين في دورة الظواهر على أنها تجل للأبدي. وبهذا المعنى الأبدي هو البداية والنهاية لكل حركة دورية.

وفي بكين، وبالقرب من بوابة /ها - تا/ حيث تبدأ المدينة الترتيرية، ينتصب جناح الانسجام الأسمى. وبإمكان المرء قراءة هذا النص القديم للغاية: «الأشياء لها بداية ونهاية. ومعرفة ما يمر أولاً وما يمر أخيراً هي إقتراب من الطاو».

ولفهم الفكرة بصورة أفضل، نستطيع رسمها تخطيطياً، معتبرين أن الطاو هو محور الحلزون الذي يرمز لتطور الظواهر. يقطع المنحني دورياً المحور الذي يقبل موجوداً فيه باستمرار.

والحكيم يذلل قصارى جهده للإفلات من سلسلة الولادات والميتات، ويسعى جاهداً أن يكون، باطنياً، إنعكاساً للطاو دون أن يترك نفسه تتأثر بمشهد الولادات والميتات. من يحمل في ذاته الطاو هو غريب عن الحياة والموت «النمر لا يعرف أين يغرز مخالبه في نفسه وكذلك الثور لا يعرف أين يغرز قرنيه».

